الكتابة وحالات النفس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كتب إليّ بعضهم يسألني: هل صحيح ماروته إحدى المجلات من أني لا أكتب حديثاً للإذاعة اللاسلكية إلا قبيل موعده بوقت قصير، وأني إذا كتبته قبل ذلك بزمن طويل فالأغلب والأرجح أن أمزقه وأكتبه مرة أخرى؟ وما سبب ذلك أو داعيه؟

فأما أني أمزق شيئاً مما أكتب — حديثاً كان أو مقالاً أو قصة — فغير صحيح، ولست أعرف أني راجعت كلاماً أكتبه أو عنيت به بعد أن أفرغ منه. فقد غدوت كالثور المشدود إلى الساقية وعيناه معصوبتان، حتى لايدور رأسه من كثرة الدوران واللف، وكلما وقف يستريح صاح به صاحبه: «عا» ولمسه بالعصا أو السوط، فيتحرك الثور ويستأنف الدوران، لأنه أخف مؤونة وأسلم عاقبة من الوقوف. وكذلك أراني، في حياتي، وإذا كان الثور يدري لماذا يجشم عناء هذا اللف كله، فإني أدري لماذا تكلفني الحياة هذا الجهد. وليست على عيني عصابة وإني لأنظر بهما وأرى، ولكني لا أدرك ما وراء ذلك، وليس ثم سوط يلهب ظهري، ولا عصا هناك تقع عليه، ولكن الحياة تدفعني من حيث أشعر ولا أشعر، وللحياة وخز وحفز وإغراء محسوس وغير محسوس؛ ولعل الذي لا نفطن إليه أفعل وأقوى من الذي ندركه من وسائلها. وكثيراً ما أشعر أني مدفوع إلى الكتابة وأني لا أملك التحول عنها أو إرجاءها، وأني سأشقى وأسقم إذا لم أذعن لهذا الدافع الغامض، فأجلس إلى المكتب وليس في رأسي شيء سوى الإحساس العام الثقيل بالحركة وبأنها يوشك أن تتمخض عن خاطر معين أو خالجة بينة، ويكون القلم في يدي في تلك اللحظة فأخطط به على الورقة وأنا حائر، ذاهل، لا أحس ما حولي، بل لا قدرة لي على الاحساس بشيء مما يحيط بي إلا إذا حملت نفسي على ذلك حملا، وخرجت بها من ضباب الحيرة والذهول والسهو بجهد واضح، ثم تخطر لي عبارة فأخطها، وأنا لا أدري إلى أين تفضي بي، ويغلب أن يطول ترددي في البداية ثم يمضي القلم بعد ذلك بلا توقف ويستغرقني الموضوع وتستولي روحه عليّ، فلا يبقى لي بال إلى شيء، حتى إذا انتهى الأمر ونضب المعين ألقيت القلم والورقات ورحت أتثاءب وأتمطى كأنما كنت نائماً، ويكون هذا آخر عهدي بما كتبت في يومي

وقد استعملت لفظ «التمخض» وأنا أعنيه، فليس ثم أدنى فرق فيما أعلم وأحس بين التمخض بالجنين، وبين حركة التوليد في النفس؛ وكما تفتر المرأة بعد أن تضع طفلها، ولا ينازعها في ذلك الوقت شوق إليه أو تحس فرحاً به؛ وإنما يكون إحساسها بالفرج بعد الضيق الذي كانت فيه والكرب الذي كانت تعانيه، والراحة بعد الجهد والمشقة والعذاب، والتفتير الذي يورثها إياه ما تجشمت، كذلك يكون الأديب بعد أن يستريح من أزمة النفس أو الفكر

ويخطر لي أحياناً أني كالمسافر الذي لا يذهب إلى المحطة إلا والقطار يوشك أن يتحرك، فما أراني أكتب إلا في اللحظة الأخيرة؛ وقد ألفت أن أرجيء الكتابة مادام في الوقت فسحة، وأحسب أنه لو وسعني أن أكف عن الكتابة لفعلت، فأني أوثر الراحة على هذا العناء الباطل، وبي مثل بلادة التلميذ الذي لا يذهب إلى المدرسة إلا محمولاً على ذراع الخادم، فليت من يدري. أهذه عادة اعتدتها أم هي طباع وفطرة واستعداد؟ على أني

من كشف الظاهر فانقلب إلى كشف الباطن، وعرف العجائب من البقاع المجهولة، فانتقى إلى العجائب من الخلائق الخفية، وكان هذا هو الترتيب الطبيعي المعقول في تاريخ الكشف والاستطلاع، فإن الاهتداء إلى المكان أسهل وأوجب من الاهتداء إلى سرائر الأخلاق، والعلم الذي يحتاج إليه المرء في سياحة جغرافية أقل من العلم الذي يحتاج إليه في سياحات الضمير، إذ هو في الواقع ملتقى جميع العلوم ومشتجر الفلسفات والديانات والمذاهب أجمعين

لقد بدأت الديمقراطية وبدأ التحليل النفسي معاً بعد كشف الأمريكتين وكشف الهند وكشف المجاهل الآسيوية والأفريقية، ولولا انكشاف الأرض للإنسان لبقي مشغولاً بالمجهول منها عن سرائره وخصائصه وما يتميز به الأفراد من حقوق وواجبات

عباس محمود العقاد

أعرفني من المرجئين في كل شيء : الدَّين أنفر من أدائه ماوسعني الفرار ، والنوم أكره أن أستيقظ منه ، والفراش يشق عليّ أن أترك نعيمه ، واليقظة أستثقل أن أنزل عنها — كل حالة أكون فيها أشتهي أن تطول وتدوم ، إلا التنغيص والألم كما لا أحتاج أن أقول

وقد جربت أن أكتب ولا أنشر ، فكتبت رواية «طويلة» ودسستها في درج المكتب ، ومضت شهور ، وسافرت إلى لبنان فحملتها معي لأراجعها هناك قبل طبعها ، فلما أجلت فيها عيني وجدت أن الحالة النفسية التي كتبتها بها قد ذهبت ، وأن حالة أخرى قد استولت عليّ ، فحاولت أن أستعيد تلك الحالة الأولى فأعياني ذلك ، فأجريت القلم في الرواية بالتبديل والتغيير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والاضافة ، وإذا بالرواية قد صارت شيئاً جديداً فقلت لا بأس ، وطويتها ، وفي عزمي نشرها بعد الأوبة إلى مصر . فلما صرت في بيتي خطر لي يوماً أن أخرجها وأتصفحها ، فإذا بي في حالة نفسية جديدة لا تسمح لي بالرضى عن الرواية في صورتها الثانية ... فأعملت فيها القلم ومسختها مرة ثانية ، وما زلت بعد ذلك أرجع إليها بالمسخ كل بضعة شهور حتى يئست فانتزعت منها فصولاً تصلح أن تكون قصصاً قصيرة ومزقت الباقي . وحمدت الله على الراحة بعد طول العناء . وأيقنت أنه خير لي ألاَّ أكتب إلا إذا وثقت من النشر بعد أن أضع القلم

وأذكر أن بعضهم سألني مرة « أي كتبك أحب إليك ؟ » فلما قلت : « ولا واحد » استغرب جوابي وأنكره ، وذكرني بأني قلت مرة إن هذه المفاضلة عسيرة لأن الكتب كالأبناء ، والوالد لا تخفى عليه مزايا أبنائه وعيوبهم ، ولا يجهل أن هذا ذكي وذاك غبي مثلاً ، ولكنه مع ذلك يحبهم جميعاً على السواء وإن كان يعرف فضل بعضهم على بعض . وهذا صحيح ، على الجملة ، وفي الأغلب والأعم ، ولكني رجل دأبي أن أراجع نفسي ، ولا تنفك حالاتي النفسية تتغير ، فنظرتي إلى الشيء وإحساسي به يختلفان من يوم إلى يوم . وثم أمر آخر هو ما يتمثل لي من صور الكمال وما يبدو لي في عملي من وجوه النقص والقصور ، وليس لي حيلة إلا أن أقيس ما أخرجت إلى ما كنت أحب أن يكون ، وإلا أن أحدث نفسي أنه كان في مقدوري أن أصنع خيراً مما صنعت ، ولو كنت أعتقد أن هذا هو غاية ما يبلغه الجهد ويصل إليه الامكان لرضيت وقنعت واغتررت ، ولكني أحس أني أقدر على خير مما أفعل ؛ وقد يكون هذا إحساساً كاذباً ، كالجوع الكاذب ، وقد يكون خدعة من خدع الغرور ، فإن يكن كذلك فإنه ولا شك بلاء ، ولكنه الواقع على كل حال . وما أكثر ما أسمع من يثني على كتاب لي ، فأتركه يثني فإن الثناء حبيب إلى النفوس ، وأتعجب له فيما بيني وبين نفسي وأسألها : ماذا أعجبه يا ترى ؟ أما لو أن رجلاً نقد نفسه ... ؟ وأزداد غروراً ، وأشعر أني فوق هذا المادح ... ولكني أتواضع وأقول له وأنا مطرق — ووجهي فيما أعتقد وأرجو مضطرم من فرط الحياء — « أستغفر الله ! أستغفر الله ! يا شيخ قل كلاماً غير هذا ! » الخ الخ

فإذا كنت لا أكتب إلا قبيل أوان النشر بأوجز فترة فذاك لأني بليد ولأن نفسي تتعاقب عليها حالات مختلفة فأسخط على ما كنت أرضى عنه وأذم ما حمدت ، واستضئل ما أكبرت ، ولا حيلة لي في ذلك . وماذا أصنع إذا كنت أحس أني مسوق إلى جسّ نفسي وقياس قدرتها إلى ما ينبغي مما ترتسم صوره في نفسي وتتمثل لي في خواطري ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

مصر

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد